مظاهر إعجاز القرآن الكريم في تعدد موضوعات السورة

علي عبدالله علان*

ملخص

إن انتقال السورة بقارئها من موضوع إلى آخر بأرقى درجات النظم إحكاماً وأعلى طبقات البلاغة بهاء، لمظهر من مظاهر إعجاز القرآن الكريم، وخرق لعادة بلغاء العرب في كلامهم المنظوم، حيث تتفاوت فصاحتهم وتتمايز بلاغتهم ويعتريهم النقص عند التنقل من موضوع إلى آخر، بل إن بعضهم لا تعرف فصاحته وبلاغته إلا في نوع من الكلام كالرثاء.
ثم إن ترابط الموضوعات في السورة وتناسبها مع تنوع أساليب الأداء، وتعاليه على الدواعي المفككة للنظم من تنجيم (تفريق) لآيات السورة في زمن النزول، وتعدد لأسباب نزول آيات منها وتباين ظروفها، لشاهد على إعجاز القرآن وألوهية مصدره، وصِدْق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في أنه الرسول الكريم.

الكلمات الدالة: إعجاز، القرآن الكريم، السورة.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فإن الله امتدح في كتابه العلم والعلماء، وحث على الدراسة، وإعمال العقل، فانبرى طائفة من العلماء وَرِثُوا العلم وَوَرَّثُوه، ولم يألُوا جهداً في البحث والدراسة في علوم الدين، وفي مقدمتها علوم القرآن، بل شَمَّروا سواعدهم باذلين جهدهم، وَجُلَّ أوقاتهم في خدمة كتاب ربهم.

ولمّا كان مبنى الإيمان في التصديق والتسليم بأن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم رسول من الله وخاتم النبيين والمرسلين، تدافع سادتنا العلماء وتسابقوا، لدراسة إعجاز القرآن الكريم، وبيان حقيقته للناس أجمعين، فسطَّروا في ذلك الكتب كاشفين أسراره، موضحين حقائقه، ناقضين الشُبه عنه.

ولست في هذه الدراسة موضحاً وجوه إعجاز القرآن الكريم، فهو مما تفنى الأعمار دونه، ولا يؤصد بابه، كيف لا؟! وهو يتجدد عبر الزمان بمظاهره الشاهدة على كتاب الله بالتميز والإنفراد، ولا تحيط به جملة الباحثين المتخصصين المتفرغين فضلاً عن آحادهم، فهو كلام الله الذي لا يُشابهه كلام، الكائن إلى يوم القيامة هادياً ونوراً للعالمين.

وإنما أهدف في دراستي هذه إثبات حقيقة مظهرين من مظاهر إعجاز القرآن الكريم في تعدد موضوعات السورة القرآنية الواحدة وتوضيحهما، حيث لم يأت كتاب الله على نمط التأليف المبوب على الموضوعات عند البشر؛ لذلك فقد جعلت الدراسة في تمهيد ومبحثين، تحدثت في التمهيد عن أنواع الترابط الثلاثة في آيات القرآن وسوره، وفي المبحث الأول: أوضحت المظهر الأول من مظاهر إعجاز القرآن الكريم في تعدد موضوعات السورة الواحدة: بانتقال القرآن الكريم بقارئه في السورة من موضوع إلى آخر بأرقى درجات النظم إحكاماً وأعلى طبقات البلاغة بهاء، والذي يُعدّ خرقاً لعادة البلغاء في كلامهم المنظوم. ثم أوضحت في المبحث الثاني: المظهر الثاني من مظاهر إعجاز القرآن الكريم: بالترابط بين الموضوعات مع تعددها في السورة الواحدة، ووفرة الدواعي المفككة لتآلفها، من تنجيم وتباعد زمني حتى تكتمل آياتها، ومن تفاوت واختلاف في جوّ نزولها وظروفه، ومن تعدد لأسباب نزول آيات منها، وما ذلك إلا لتعالي كلام الله؛ لنُبصر حقيقة ألوهية القرآن وربانية مصدره وصِدْق من أُنزل عليه وأُرسل به، مقدماً الأدلة وأقوال العلماء السابقين والمعاصرين في هذين المظهرين ومبيناً ومضيفاً وممثلاً لها، ثم نتائج الدراسة.

وصدق الله حيث قال: { أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا } [النساء: 82].

ولم أقف على دراسة مستقلة جامعة تعالج هذه القضية، من حيث مظاهر الإعجاز في تعدد موضوعات السورة القرآنية.

* جامعة البلقاء التطبيقية، الأردن. تاريخ استلام البحث 2013/8/19، وتاريخ قبوله 2014/4/6.

© 2014 عمادة البحث العلمي/ الجامعة الأردنية. جميع الحقوق محفوظة.

وأما تلك التي تبحث في وجوه الربط بين الموضوعات ومنهجه[1]، فلا علاقة لها في دراستي هذه. والله أسأل أن يُعظّم أجر مشايخنا، وأن يزيدهم من عطائه علماً وحكمة، والله ولي التوفيق.

التمهيد

عُني المسلمون بالقرآن الكريم، حيث نال هذا الكتاب ما لم ينله كتاب آخر بحثاً وتفسيراً وتأصيلاً لعلومه؛ وذلك لأنه معجزة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ودليل صدقه في نبوته، ولأنه منهج الأمة في حياتها.

وكان العلماء الذين تصدروا أبواب العلم قد صنفوا مؤلفات في علوم القرآن اشتملت على قواعد وأصول تَضْرب بأسهم في فهم كتاب الله وتفسيره، والوقوف على مظاهر إعجازه، وتحقق وعد الله المقطوع بحفظه، ومن مباحث علوم القرآن التي بحثها العلماء قضية الترابط في كتاب الله بأبعادها الثلاثة: الترابط بين الآيات، والترابط بين موضوعات السورة القرآنية ومقاطعها، والترابط بين السور، التي تتجلّى منها معاني في فهم كتاب الله ومظاهر من إعجازه .

وأكثر العلماء المصنفين في علوم القرآن بحثوا قضية الترابط تحت عنوان المناسبة[2]، فهذا الزركشي (794هـ) جعل النوع الثاني في علوم القرآن "معرفة المناسبات بين الآيات" وتعرض في أثناء ذلك للمناسبة بين خاتمة السورة وفاتحة التالية لها وقال: "المناسبة علم شريف تحرز به العقول، ويعرف به قدر القائل فيما يقول: "وفائدته: جعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء"[3] وتابعه في ذلك السيوطي (911هـ) وهو عنده النوع الثاني والستون" في مناسبة الآيات والسور"[4]، كما ألف كتاباً في مناسبة السور سماه (تناسق الدرر في تناسب السور).

وكان الراغب الأصفهاني (502هـ) من قبل قد عرض لقضية الترابط عرضاً موجزاً تحت عنوان الكلام المنظوم، حيث يرى أن لتأليف الكلام خمس مراتب: "الثالثة منها: أن يُضم بعض الجمل إلى بعض ضماً له مبادٍ ومقاطع ومداخل ومخارج ويقال له: المنظوم"[5]، وسماه ابن النقيب (698هـ) بالتشابه، وقال: "التناسب ويسمى التشابه: وهو ترتيب المعاني المتآخية التي تتلاءم ولا تتنافر، والقرآن العظيم كله تناسب لا تنافر فيه ولا تباين"[6].

وعرف البقاعي (885هـ) المناسبة بقوله "علم تُعرف به علل ترتيب أجزاء الكلام، وهو سر البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المقال لما اقتضاه الحال"[7].

وبعلم المناسبة والترابط يتبين حسن نظم الآيات واتساق تراكيبها وإحكام بنائها في مقاطعها بمعانيها وبموضوعاتها في السورة القرآنية، يقول البقاعي "وموضوعه: أجزاء الشيء المطلوب علم مناسبته من حيث الترتيب، وثمرته" الاطلاع على الرتبة التي يستحقها الجزء بسبب ماله بما وراءه وما أمامه من الارتباط والتعلق، الذي هو كلحمة النسب"[8].

وبذلك ترى البقاعي قد تميز في تعريفه لعلم المناسبة عن السابقين الذين التفتوا إلى ترابط المعاني في الموضوع الواحد في المقطع القرآني، بينما التفت إلى السياق القرآني الذي يربط بين المقاطع المتعددة بمعانيها وبموضوعاتها.

والحق أن العلماء السابقين اعتنوا ببعدين من أبعاد الترابط في القرآن: الترابط بين الآيات، والترابط بين السور، تأصيلاً نظرياً في كتب علوم القرآن وتطبيقاً في تفاسيرهم[9]، وأما البعد الثالث الترابط بين موضوعات ومقاطع السورة القرآنية، فكانت فيه إشارات فقط من السابقين وبيان لوجهه الإعجازي- نقف عليها في هذه الدراسة- إلا أنه أخذ أهميته وبعده في العصر الحديث، فبحث المحدثون الترابط بين الموضوعات في السورة تحت عنوان "الوحدة الموضوعية" وألفوا في ذلك الكتب[10]، ودرسها بعضهم تطبيقا في تفاسيرهم[11]، كما اصطلح بعض المعاصرين على تسمية الترابط بأبعاده الثلاثة الإعجاز البنائي[12].

والتناسب عرفه العرب في بيانهم واحتفوا به كثيراً في مظاهر منه: كالمقابلة بين الفقرات والازدواج بينها وتعادلها، وتناسب الألفاظ والسجع، إلى غير ذلك من مظاهر التناسب والتوازن في شعرهم ونثرهم في الموضوع الواحد، وهذا مما لا يخفى على دارس، ولكن إذا ما انتقل العربي البليغ من موضوع إلى موضوع تباين النظم واختلف التناسب، ولا يتأتى له الحُسن في كل انتقالاته وتخلصاته؛ إذ تارة تكون في غاية الحُسن والجودة، وأخرى مبتذلة ركيكة.

المبحث الأول: المظهر الأول من مظاهر إعجاز القرآن الكريم في تعدد موضوعات السورة

- المطلب الأول: تعدد الموضوعات في السورة والإعجاز البياني.

إن إحكام النظم وتلون أساليب الأداء مع انتقال القرآن الكريم في السورة من موضوع إلى آخر، خرق لعادة البلغاء في كلامهم المنظوم ومظهر من مظاهر الإعجاز البياني. حيث جاء القرآن الكريم بحروف وألفاظ عربية يعرفها العرب، تجري على ألسنتهم إلا أنه انفرد بنظم وأسلوب لم يعهدوه في كلامهم، بل هو نقض للمألوف، فعجزوا عنه وانقطعت الحيل دونه.

كما عَرَف بلغاء العرب أن ينظموا كلاماً بأساليب متعددة منها الشعر والنثر من خطب ورسائل ونحو ذلك، فجاء القرآن الكريم لا من قبيل هذا ولا هذا، بل خرقاً لما اعتادوه وخروجاً عما ألفوه، فهذا الإمام الرماني (386هـ) وهو يحدثنا عن وجوه الإعجاز يقول: "وأما نقض العادة: فإن العادة كانت جارية بضروب من أنواع الكلام معروفة: منها الشعر ومنها السجع ومنها الخطب ومنها الرسائل، ومنها المنثور الذي يدور بين الناس في الحديث، فأتى القرآن بطريقة مفردة خارجة عن العادة لها منزلة في الحسن تفوق به كل طريقة"[13]، وهذا الباقلاني (403هـ) في حديثه عن جملة وجوه إعجاز القرآن الكريم يقول: "منها ما يرجع إلى الجملة وذلك أن نظم القرآن على تصرف وجوهه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد"[14].

نعم إن نظم القرآن غير مألوف يعجز الخلق عن معارضته بمثله أو مناقضته في شكله، وليس هذا فحسب بل تجد السورة منه تنتقل بقارئها من معنى إلى آخر ومن فن إلى فن، ولكن بأعلى درجات النظم إحكاماً وأرقى طبقات البلاغة بهاءً، لا يتفاوت في نظمه ولا يتباين في تأليفه، وهذا ما أكد عليه الباقلاني في ذكره لوجوه الإعجاز فقال: "وفي ذلك معنى ثالث: **وهو أن عجيب نظمه وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها**، من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج وأعذار وإنذار، ووعد ووعيد، وتبشير وتخويف وأوصاف، وتعليم أخلاق كريمة وشيم رفيعة، وسير مأثورة وغير ذلك من الوجوه التي يشتمل عليها"[15].

وبعد عرضه للمعاني التي تظهر وجوه الإعجاز، بيّن أن نهج القرآن في هذا المظهر من الإعجاز بنظمه لا يُدركه إلا القليل، فقال: "فأما نهج القرآن ونظمه وتأليفه ورصفه، فإن العقول تتيه في جهته، وتحار في بحره، وتضل في وصفه.

واعلم أن هذا علم شريف المحل، عظيم المكان، قليل الطلاب، ضعيف الأصحاب، والتقليد أولى بمن ليس من أهله، والإتباع أوجب، فلكل شيء سبب، ولكل علم طريق، ولا سبيل إلى الوصول إلى الشيء من غير طريقه، ولا بلوغ غايته من غير سبيله"[16].

والنظم بحسب ما عرّفه الجرجاني (474هـ) وما جرى عليه أهل العلم هو: "تَوخي معاني النحو"[17]، فالكَلِم تترتب في النطق بسبب ترتب معانيها في النفس[18]، ومزايا النظم من تقديم وتأخير وتعريف وتنكير... تابعة للمعاني والغرض من الكلام[19]، لذلك فإن اللفظ تبع للمعنى في النظم[20]. والفصاحة في اللفظ تتأتى له بسياقه الذي ورد فيه، يقول الجرجاني: "وجملة الأمر أنّا لا نُوجب الفصاحة للفظةٍ مقطوعةٍ مرفوعةٍ من الكَلِم الذي هو فيه، ولكنّا نُوجبها لها موصولةٌ بغيرها، ومعلَّقاً معناها بمعنى ما يليها"[21]، ولمّا كان السياق وغرض المتكلم يُتَوخَّى فيه معاني النحو، كانت الفصاحة لا تتجزأ عن النظم. وأما البلاغة فهي مما يقتضيها نظم الكَلِم العربي، حيث يقول: "وذلك لأن هذه المعاني – التي هي الاستعارة، والكناية، والتمثيل، وسائر ضُروب المجاز من بعدها – من مقتضيات النظم، وعنه يحدث وبه يكون؛ لأنه لا يُتَصَوَّر أن يدخل شيءٌ منها في الكَلِم، وهي أفراد لم يُتَوَخَّ فيما بينها حُكمٌ من أحْكَام النحو"[22].

بل إنه من غير المألوف أيضاً، تلون أساليب الأداء في القرآن وطرقه مع ذلك النظم العجيب والتأليف البديع، وهو ينتقل من معنى إلى آخر ومن موضوع إلى موضوع، يقول الدكتور دراز (1377هـ): "ولا عجب أنه من كونه أكثر الكلام افتناناً وتنويعاً في الموضوعات هو أكثر افتناناً وتلويناً في الأسلوب في الموضوع الواحد... ألا تراه كما ينتقل في السورة الواحدة من معنى إلى معنى ينتقل في المعنى الواحد بين إنشاء وخبر... وإظهار وإضمار... وغيبة وخطاب إلى غير ذلك من طرق الأداء على نحو من السرعة لا عهد لك بمثله... ومع هذه التحولات السريعة المستمرة التي هي مظنة الاختلاج والاضطراب بل مظنة الكبوة والعثار في داخل الموضوع أو في الخروج منه تراه لا يضطرب ولا يتعثر، بل يحتفظ بتلك الطبقة العليا من متانة النظم وجودة السبك حتى يصوغ من هذه الأفانين منظراً مؤتلفاً"[23].

ومما تميز به الأسلوب القرآني التصوير الفني حتى في المعاني الذهنية، يقول سيد قطب (1387هـ): "التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن. فهو يُعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنسانيّ والطبيعة البشرية. ثم يرتقي بالصورة... حيث تتوالى المناظر، وتتجدد الحركات، وينسى المستمع أن هذا كلام يُتلي، ومثل يُضرب، ويتخيَّل أنه منظر يُعرض، وحادث يقع... فإذا ما ذكرنا أن الأداة التي تُصوِّر المعنى الذهني والحالة النفسية، وتُشخص النموذج الإنسانيّ أو الحادث المروي، إنما هي ألفاظ جامدة، لا ألوان تُصوِّر، ولا شُخوص تُعبِّر، أدركنا بعض أسرار الإعجاز في هذا اللون من تعبير القرآن. والأمثلة على هذا الذي نقول القرآن كله..."[24].

– المطلب الثاني: دراسة تطبيقية على آيات من سورة (ص)

ونقف مع هذه الدراسة التطبيقية التي نستبين فيها بعضاً

من أسرار النظم في القرآن الكريم وما يقتضيه من فصاحة وبلاغة، ونتبين ما فيه من تلون أساليب الأداء وطرقه – فهو يُخاطب العقل ويُثير العاطفة، ويُخاطب العامة والخاصة، ويُجمل ويُفصّل... ويُوجز اللفظ مع الوفاء بالمعنى، مع تصوير فني– كل ذلك يتلمسه المتدبر بين آية وأخرى، في تقابل بين المعاني والموضوعات، يقول الله تعالى:

{وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ (45) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (46) وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ (47) وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ 48)}

{هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (49) جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ (50) مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ (51) وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ (52) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ (53) إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ (54)}

{هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (55) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (56) هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (57) وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (58) هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (59) قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (60) قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (61) وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ (62) أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ (63)} [سورة (ص): 45–64].

إنها آيات من الذكر الحكيم، بنسقها ونظمها الذي يَسبق ولا يُسبق بل لا يُبارى ولا يُجارى، فانظر إلى قوله سبحانه: {أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ} في المقطع الأول الذي تتحدث فيه الآيات حديثاً مجملاً عن أنبياء – في سياق الترغيب بالتأسي بهم .– ما سرّ التعبير عن الأعمال الصالحة (بالأيدي) مجازاً، أليست هي آلتها والقوة التي تُزاول بها أكثرها؟ ألا ترى أن الله يَلْفت أنظارنا إلى جارحة شَكَره الأنبياءُ عليها؛ بصرفها في مرضاته والصالحات، أفلا نتأسى بهم فنشكره[25] عليها وعلى أمثالها، وما كان ذلك لنلتفت إليه لو قال (أولي الأعمال).

ثم وصفهم بأولي الأبصار ولم يصفهم بأولي النهى أو الألباب؛ لأنه أراد البصيرة بمآلات الأعمال والأمور، التي يُدرك أثرها الدنيوي بالعقول، ويُعلم بالوحي ثوابها بعد النشور، فلذلك أتبع وصفهم هذا بيان ما أعدّه سبحانه للعاملين المتقين.

فإن سألت: لماذا قدّم الأيدي على الأبصار؟ قلت: لأن أثر الأعمال الصالحة وحُسن المعاملة يتعدّى للآخرين، والامتداح بما يتعدّى أثره أولى، فالبصيرة تخص صاحبها وينتقل أثرها للآخرين بتعلمهم إيّاها أو حَمْلهم على إدراكها. ولأن ذكرهم سِيق للتأسي والاقتداء بهم، وملامحهما أكثر وضوحاً فيما تصنعه الأيدي، ولمّا كانت البصيرة منها ما هو غيباً نحو مآل الصالحات في الآخرة، الذي لا يعلمه إلا الأنبياء فأخّر ذكرها.

وتمعن في فصاحة لفظ (أولي) وما تضمنه من معنى لا يَتأتى مثله في لفظ (أصحاب)؛ لأنه من (أَوَلَ) والأَوّل المتقدم على غيره[26] فحَمَل اللفظ في ثناياه المدح، فهم متقدمون على غيرهم في الأعمال والاستبصار. وجعل وصفهم هذا مقدمة لنتيجة اخلاصهم بجملة مجملة[27] في قوله: {إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ} بأسلوب يقنع عقل القارئ للسير على هداهم، ثم أتبعها بياناً بأوجز لفظ وأوفى معنى، حيث قال سبحانه: {بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ} فعبر عن اخلاصه إيّاهم المسند إليه – لكمال العناية اللدُنية بهم – بوصف مشتق منه مرفقاً بباء السببية[28]؛ ليجذب القارئ – نحو قوله: {القَارِعَةُ مَا القَارِعَةُ} – فإجمال مع ابهام لتفخيم ما بعده من بيان[29] أعني {ذِكْرَى الدَّارِ} ، فذِكْراهم الآخرة دائباً مستغرقاً كل حياتهم لا يغفلون عنها[30]، بل سخروا الدنيا الفانية للآخرة الباقية، ليرفع بذلك سوية المخاطبين بالآيات لمماثلة ما عليه الأنبياء، ولمّا كانت ألفاظ القرآن حمّالة للمعاني – فلا يَخْلَق على كثرة الرد، وهو مورد عَذْب لا يفارقه الريّان – فيحتمل قوله: {ذِكْرَى الدَّارِ} معنى الثناء الجميل عليهم في الدنيا بلسان الصدق الذي ليس لغيرهم[31]، نحو قوله: في حق سيدنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام {وجَعَلْنَا لَهُم لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً} [سورة الشعراء: 84]. وعلى أيّ المعنيين فلفظ (ذِكْرَى) اسم مصدر يدل على قوة المعنى[32]، فالتذكر متمكن في قلوبهم على المعنى الأول، وذِكْر الآخرين لهم متمكن عبر الزمان على المعنى الثاني.

ولمّا كان الحديث عن أنبياء – إجمالاً – في سياق الدعوة للتأسي بهم، انتقلت الآيات لتحدثنا عن المتقين، وهي ترسم طريقهم في الآخرة وما أعدّ الله لهم من حُسن الاستقبال والإقامة في جنات عدنٍ، بعد أن رسموا خُطَاهم في الدنيا على خُطَى الأنبياء. وذلك بأسلوب قرآني فريد فيه المزيد من شدّ الانتباه، فقال: {هَذَا ذِكْرٌ}[33] ثم جرى السياق يُخبر عمّا أعده الله لهم. إنه لحُسن مآب في أحسن هيئات الترحاب، دلّ عليه قوله: {مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ}، وإنها لصورة متخيلة[34] لهذا الترحاب تتقدح في ذهن القارئ والسامع وكأنه يعيشها، وتدفع فيه الحرص ليحقق ما يجعله به يستحقها.

وتدبر صورة من الفصاحة بالإيجاز[35] مع الوفاء بالمعنى في قوله: {بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ} فالترغيب دون التنصيص على أصناف الوعد المرغب به أو تقييده أو وصفه، لتذهب كل نفس مؤمنة بتوقع ما تتوقع، وعند الله أعظم مما تتوقع، كيف لا! وهو الكريم الأول والآخر جلّ في علاه. وفي قوله: {أَتْرَابٌ}

لفظ موجز بمعنى متسع، فهو صفة مشبهة تدل على التساوي والتماثل بين قاصرات الطرف، تشبيهاً بالترائب التي هي ضلوع الصدر[36]، مع ما في اللفظ من الدلالة على كثرتهن[37].

ثم تنوع بالأسلوب هادف، بالتحول من الغيبة إلى الخطاب، والالتفات إليهم في قوله: {هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ}؛ لأنهم حرصوا على ما يؤهلهم لهذا النعيم أو بلغوا إلى اليقين بتحققه، فخصهم بهذا الخطاب المشفوع بالأسلوب الأجمل في موضعه وظلاله على المعاني، مع اسم الاشارة بدلالته للقريب الحاضر المتحقق، بما يدل على إنزاله لهم منزلة المتيقنين، ومن لم تكن منزلته كذلك من القارئين والسامعين كانت حَمْلاً لهم عليها وشحذاً لهممهم وترغيباً بها. وختم الوعد بما أعده من نعيم للمتقين بقوله: { إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ } بالعدول عن الضمير إلى اسم الاشارة بدلالته – المذكورة – في قوله: {إِنَّ هَذَا} لكمال العناية بتميز النعيم لتميزهم، ولجلب الذهن إلى أصنافه، فالمؤمن يتذوقها إن آمن بها حق اليقين، فتراه سبحانه ترغيباً لهم وتعزيزاً للمتقين أنزلهم جميعاً بهذا الخطاب منزلة الحاضرين في النعيم، وبتأكيدات وجملة اسمية تفيد الثبوت، مع نفي نفاده. وإيثار لفظ (نفد) الأليق بمكانه من غيره؛ لأنه نفي انقطاع الشيء المتسع[38] بما يتوافق مع دلالة السياق، وآيات أخرى كثيرة تفيد الخلود المقيم.

ثم تأتي الآيات في المقطع الثالث تبين مآل الطاغين، الذين كانوا ينئون بأنفسهم عن اتباع الأنبياء وينهون غيرهم، بل ويتكبدون النفس والنفيس في صدّ المتقين المتأسين بالأنبياء ويفتنونهم عن دينهم. في صورة تقوم على المقابلة بين الوعد والوعيد، لِمَا كان في الواقع من مُحادة ومضادة للدعوة والترغيب، وبذات الأسلوب القرآني الفريد {هَذَا ذِكْرٌ} مستهلاً صورة المقابلة بقوله: { لَشَرَّ مَآبٍ} إنه باب مفتوح من الوعيد كبير، من الله الواحد القهار المالك يومئذ وعليه قدير.

وتأمل سرّ إيثار لفظ (المَآب) على غيره نحو (المرجع) إنه اللفظ الأخص بموضعه، الأبلغ في نظمه، الأفصح في معناه وسياقه، والأوسع في دلالته، فالمآب يصح اسم زمان واسم مكان، فهو شر زمان يؤبون فيه، وشر مكان يؤبون إليه، ويصح مصدراً ميمياً بمعنى الأوْب ليتضمن معنى ثالثاً بأن للطاغين وأتباعهم المقلدين إرادة[39] في اختيار الكفر والصدّ عن سبيل الأنبياء، لذلك كان مصيرهم إلى أسوأ حال. ولأن للمتقين إرادة في اختيار الإيمان والاقتداء بالأنبياء، فأوَبُوا خير أوْب في أحسن زمان وفي أحسن مكان، فكان لهم من الله أجمل استقبال.

وهذا قوله: {فَبِئْسَ الْمِهَادُ} يزيد الطغاة توبيخاً وذماً، وكأنه يُلقي اللوم عليهم ويقول: أوَ أصحاب الإرادة يَمْهدون لأنفسهم مفترشين جهنم وصِليها! أم إن إرادتهم مع شهواتهم وأهوائهم واتباعهم شياطينهم غير فاعلة كإرادة النائم[40] وتخبط الغافل.

ثم قابل الفاكهة والشراب المرغب بهما المتقون، بالنذير للطاغين في قوله: {هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ} والمراد به الشُرب[41]، وعبر عنه بالذوق الذي يكون باللسان، لتشبيه تمكن ألمه كتمكن الاحساس بما يذوقه اللسان[42]. وبذلك هم بين شرابين حميم وغسّاق[43]، والغسّاق على وزن فعّال الذي يغلب في الصفات، لذلك احتمل معاني متعددة في صور متخيلة تكشف عن ألمه، ذكرها المفسرون من الصحابة والتابعين[44]. وأما قوله تعالى: {وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ } فهو وعيد بلفظ موجز مضمناً ما لا حدّ له منه، فهي مَذُوقات من صنوف العذاب عديدة، ومثلها في الألم شديدة، إنها عَذَابات للطاغين تتجدد، كما في الصورة المقابلة بما وعد الله به المتقين من عطاء لا ينفد.

وترى في قوله تعالى: { هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ} المعاني تفيض على الألفاظ، فالطغاة تقدموا على المتبوعين في الحساب والعذاب بالصلي في جهنم، ولأن الأتباع كثيرين فيفوجون إليها فوجاً تلو الفوج مزدحمين مندفعين[45]– في صورة متخيلة – يرسمها الاقتحام، حيث تابعوا سادتهم الطغاة من غير روية في معاداة دين الله، ولما كانت هذه سجيتهم في الدنيا كان هذا حالهم في الآخرة. ثم أدركوا حقيقتهم وعاقبة اتباعهم لسادتهم، فأخبرنا الله بقولهم يومئذ حيث قال سبحانه:{ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبَاً بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ} ليملكوا إرادة الكلام في يوم لا ينفعهم فيه شيء، فما هو إلا الخصام.

ويُسدل الستار بعد هذه المقاطع الثلاث بكلمات أُحكمت أيُما إحكام، إنها كلمات تصلح خاتمة لها ومقدمة لما بعدها، إنه كلام الحكيم سبحانه: {قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيْمٌ * أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ} [سورة (ص): 67–68]، فهي تقرر ما عليه حالهم بعد وصف مآلهم، ثم ليأتي الحديث عن رائد الفتنة للمؤمنين إبليس في اغوائه لأبيهم آدم عليه الصلاة السلام.

وهكذا ترى القرآن الكريم يتعالى على غيره! بكل آياته بنظمها ومعانيها التي تفيض على ألفاظها، وفي مقاطعها بموضوعاتها في سورها، وهي في تناسقها ويُكَأنها متصلة ليس بينها ما يعتورها، وأنّى له ألّا يتعالى؟! وهو كلام المتعالي جلّ في عُلاه.

نعم إنه هذا هو القرآن كلام الله– سبحانه – خرق لعادة البلغاء في كلامهم المنظوم، فإنك تجد الشاعر المُفْلِق[46]، والخطيب المِصْقَع[47] تتفاوت بلاغته وتختلف حسب ما يحكيه من معنى وفن، بل إن من شعراء العرب وبلغائهم من تنحط

بلاغته وفصاحته إذا تكلم في غير ما يجيد من الفنون والموضوعات، يقول الباقلاني "ومتى تأملت شعر الشاعر البليغ رأيت التفاوت في شعره على حسب الأحوال التي يتصرف فيها، فيأتي بالغاية في البراعة في معنى، فإذا جاء لغيره قصر عنه ووقف دونه وبان الاختلاف على شعره[48]... وقد تأملنا نظم القرآن فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه – أي من مواعظ ووعيد وغيرها – على حد واحد في حُسن النظم وبديع التأليف والرصف لا تفاوت ولا انحطاط عن المنزلة العليا ولا إسفال فيه إلى المرتبة الدنيا"[49].

وعلى ذلك فانتقال القرآن الكريم من موضوع إلى موضوع بأعلى درجات النظم وأرقى طبقات البلاغة بهاء، ودون تفاوت في الفصاحة، مع تنوع في طرق وأساليب الأداء، لهو مظهر من مظاهر إعجازه.

وإذا كان كلام البلغاء يتفاوت ويتباين بلاغة وفصاحة حسب الموضوع فإن أحوالهم والبيئة التي يتفتق فيها كلامهم تترك تفاوتاً واضحاً وتبايناً جلياً، يقول الدكتور فضل عباس (1432هـ): "إن لنفسية الشاعر أو الخطيب أثراً على كلامه إيجاباً وسلباً، ومن هنا قالوا: أشعر الناس: امرؤ القيس إذا ركب، والنابغة إذا رهب، وزهير إذا رغب، والقرآن ليس كذلك، فعلى رغم الأحوال المتعددة التي كان عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتنزل عليه الوحي، فإن ذلك لم يُغيّر من أسلوب القرآن"[50].

لم يغير ذلك من أسلوب القرآن؛ لأنه كلام الله الذي يتعالى على النقص، وإنه لدليل على مصدرية القرآن من جهة، وعلى كمال الله من جهة أخرى، لأن التأثر بالظروف والأحوال والبيئة علامة نقص المخلوقين.

ويقول الدكتور عبد الكريم الخطيب (1406هـ): "... فلم يتأثر القرآن بالأحداث العارضة التي كانت تدور في محيط الدعوة الإسلامية... فالقرآن ينزل في مكة على النبي صلى الله عليه وسلم وقد أخذ عليه الأعداء كل سبيل وملكت عليه قريش كل أمر، فلم يلتفت القرآن لهذا بل تَتَنَزَّل آياته مدوية تتوعد قريشاً وتسوق رؤوسها لموارد الخزي في الدنيا ولعذاب الآخرة، فكلمات القرآن أبداً مشحونة بقوى تنبئ عنها تلك القوة العظيمة (مصدرها)"[51].

ولكن إدراك هذا المظهر من مظاهر إعجاز القرآن الكريم، في فصاحته وبلاغته وعدم تفاوتهما والسورة تتنقل بقارئها من موضوع إلى آخر، لا يتحقق إلا لمن كانت فصاحته فطرة وبلاغته سجية، عرف اللغة وعلَكَها، فلسانه لآدابها الرقيقة ذوّاقاً، وقلبه لمعانيها الأنيقة مدركاً، وهي بذلك مَلَكة لا تصنعاً.

وهذا المظهر مما لا ينكره أحد؛ لأن تحوّل العرب الأقحاح – المتفاخرون بشعرهم المتبارون في أسواقهم – عن معارضة القرآن الكريم بالبيان إلى المحاربة بالسنان لدليل على عجزهم وضعفهم، كيف لا؟ والقرآن الكريم كلام الله، وكلامه من صفاته، وهو الذي ليس كمثله شيء سبحانه وتعالى.

المبحث الثاني: المظهر الثاني من مظاهر إعجاز القرآن الكريم في تعدد موضوعات السورة

المطلب الأول: الترابط بين الموضوعات في السورة القرآنية والإعجاز القرآني في بنائه

من مظاهر إعجاز القرآن الكريم– التي تزيده إعظاماً، وتثبت حقيقة مصدريته وتؤكد ألوهيته – الترابط بين موضوعات السورة القرآنية الواحدة، فأقول: لو أنك أمعنت النظر في سورة وهي تنتقل بك من معنى إلى معنى ومن موضوع إلى آخر، تجد آيات كل موضوع مترابطة متناسبة آخذة بعضها بحجز بعض، وكل موضوع يفضي إلى الآخر، وينتظمان بأحسن صور الالتئام وتَتَّابع موضوعات السورة وتَتَّعَانق كعقد أُحكم تمام الإحكام، وإن كان ظاهرها يوجب اختلافها، ولكنها مؤتلفة! وإن كان تعددها يوجب شتاتها ولكنها مجتمعة! وإنك لتتيقن أن الترابط بين الموضوعات في السورة وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم في بنائه[52].

وفي ذلك تضافرت أقوال سادتنا العلماء: **فهذا الإمام الخطابي (388هـ)** رحمه الله يَعُدُّ الجمع بين شتات الأمور حتى تنتظم أمر يعجز عنه البشر، حيث يقول: "فتفهم الآن واعلم أن القرآن[53] إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمناً أصح المعاني: من توحيد له عزت قدرته، وتنزيه له في صفاته ودعاء له في طاعته، وبيان منهاج عبادته، من تحليل وتحريم وحظر وإباحة، ومن وعظ وتقويم، وأمر بمعروف ونهي عن منكر، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق، وزجر عن مساوئها، **واضعاً كل شيء في موضعه الذي لا يُرى شيء أولى منه،** ولا يُرى في صورة العقل أمر أليق منه، مودعاً أخبار القرون الماضية، وما نزل من مثلات الله بمن عصى وعاند منهم، منبئاً عن الكوائن المستقبلية في الإعصار الباقية من الزمان، جامعاً في ذلك بين الحجة والمحتج له، والدليل والمدلول عليه، ليكون ذلك أوكد للزوم ما دعا إليه، وإنباء عن وجوب ما أمر به، ونهى عنه.

ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور، **والجمع بين شتاتها حتى تنتظم وتتسق، أمر تعجز عنه قُوى البشر ولا تبلغه قدرهم،** فانقطع الخلق دونه وعجزوا عن معارضته بمثله أو مناقضته في شكله"[54].

وهذا الإمام الباقلاني يَعُدّ الترابط بين الموضوعات وتآخيها

وتآلفها وجه إعجاز، حيث يقول في كلامه عن الوجه الثالث من وجوه الإعجاز: "ومعنى رابع: وهو أن كلام الفصحاء يتفاوت تفاوتاً بيناً في الفصل والوصل، والعلو والنزول، والتقريب والتبعيد، وغير ذلك مما ينقسم إليه الخطاب عند النظم، ويتصرف فيه القول عند الضم والجمع، ألا ترى كثيراً من الشعراء قد وصف بالنقص عند التنقل من معنى إلى غيره والخروج من باب إلى سواه... **على أن القرآن على اختلاف ما يتصرف فيه من الوجوه الكثيرة والطرق المختلفة يجعل المختلف كالمؤتلف والمتباين كالمتناسب والمتنافر في الأفراد إلى حد الآحاد**، وهذا أمر عجيب تتبين به الفصاحة وتظهر به البلاغة ويخرج به الكلام عن حد العادة ويتجاوز العرف"[55] وهو بخروجه عن العادة والعرف خرق وإعجاز، ويقول في موضع آخر "ثم من قصة إلى قصة ومن باب إلى باب من غير خلل يقع في نظم الفصل إلى الفصل حتى يصور لك الفصل وصلاً ببديع التأليف وبليغ التنزيل"[56].

ويقول الإمام الرازي (606هـ) "ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة[57]– يعني سورة البقرة التي تعددت موضوعاتها وطالت آياتها– وفي بدائع ترتيبها عَلِم أن القرآن كما أنه معجز بحسب ألفاظه وبشرف معانيه فهو أيضاً معجز بحسب ترتيبه ونظم آياته، ولعل الذين قالوا إنه معجز بحسب أسلوبه أرادوا ذلك إلا أني رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف غير منتبهين لهذه الأمور"[58].

هذه أقوال العلماء السابقين في بيان وجه الإعجاز بترابط موضوعات السورة القرآنية الواحدة. ومن المحدثين يرى الدكتور أبو زيد أن الترابط بين أجزاء السورة وكذا التناسب بين الآيات من لوازم الإعجاز البياني حيث يقول: "وكان يجب في اعتقادنا أن يكون هذا العلم جزءاً من مباحث إعجاز القرآن ودعامة من دعائم التفسير، لأن إظهار الإعجاز في البيان القرآني لا يتم بدراسة الصورة البيانية والأساليب البديعة الجزئية، ولا بدراسة أحوال التراكيب في حدود الجمل وحدها، وإنما بدراسة ذلك كله في سياق وحدة السور وارتباط الآيات وتناسب معانيها"[59].

المطلب الثاني: دراسة تطبيقية على آيات من سورة البقرة

هذه دراسة تطبيقية نُعاين بها بديع نظم القرآن الكريم، وهو يتنقل من موضوع إلى آخر، وتناسق تأليفه وجمال ترابطه، فلننظر سوياً إلى مقطع الآيات التي فرض الله فيه علينا الصيام وبين أحكامه في سورة البقرة من الآية [182 – 189]، وكانت الآية [188] منه في تحريم أكل الأموال بالباطل، والآية [189] في الأهلة والمواقيت، ثم كان المقطع التالي آيات يأمر الله فيها بقتال الكفار المقاتلين ويبين أحكامه عند المسجد الحرام وفي الأشهر الحُرم من الآية [190– 195]، ثم يأتي مقطع من الآيات في أحكام الحج من الآية [196– 203] وبذلك ترى آيات عن القتال توسطت بين مقطعين يتحدثان عن ركنين من أركان الإسلام الصيام والحج.

يقول الله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (183) أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (184) شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآَنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (185) وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (186) أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآَنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آَيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (187) }

{وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (188)}

{ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (189) }

{ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (190) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (191) فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (192) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (193) الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (194) وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (195) }

{ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ

مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (196) الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ (197) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (198) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (199) فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (200) وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (201) أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (202) وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (203)} [سورة البقرة: 183-203].

وقبل أن نعاين معاً جمال ترابط هذه المقاطع القرآنية وبديع تأليفها، نتوقف مع الأجلة المفسرين الذين لهم عناية بهذا العلم فيما ذكروه، فهذا الإمام الرازي ربط ربطاً جزئياً بين خاتمة آية الأهلة ومطلع مقطع آيات القتال، حيث قال: "المسألة الأولى: أنه تعالى أمر بالاستقامة في الآية المتقدمة بالتقوى في طريق معرفة الله تعالى... ثم أمر في هذه الآية بأشد أقسام التقوى وأشقها على النفس، وهو قتل أعداء الله فقال: **(وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ)**"[60]، ولم يلتفت إلى الربط بين آيات الصيام وآية النهي عن أكل الأموال بالباطل وآية الأهلة[61] – ربما لأنه رأى الرابط بينها واضحاً لا يحتاج إلى بيان– كما لم يربط بين آيات القتال وآيات أحكام الحج[62].

وهذا الإمام البقاعي يربط بين المقاطع الثلاثة فيقول: "ولما ذكر سبحانه الحج في هذه السورة المدنية وكان سبيله إذ ذاك ممنوعاً عن أهل الإسلام بأهل الحرب، الذين أخرجوهم من بلدهم، ومنعوهم من المسجد الحرام الذي هم أحق به من غيرهم، وكان الحج من الجهاد، وكان كل من الصوم والجهاد تخلياً عن الدنيا... وكانت أمهات العبادات موقتة وهي الصلاة والزكاة والصوم والحج، وغير موقتة وهي الذكر والجهاد وهو قتال أهل الحرب... وكان سبحانه قد ذكر العبادات الموقتة أتبعها بغير الموقتة"[63].

ومن المحدثين الأستاذ سيد قطب يقول في الربط بين آية الأهلة وما بعدها: "بعد ذلك يجيء الحديث عن الحج والعمرة وشعائرهما والتسلسل في السياق واضح بين الحديث عن الأهلة، وأنها مواقيت للناس والحج، والحديث عن القتال في الأشهر الحرم وعن المسجد الحرام، والحديث عن الحج والعمرة وشعائرهما في نهاية الدرس"[64].

ويرى الأستاذ سعيد حوى (1409هـ) أن السياق في شرح التقوى أو بيان الطرق المؤدية إليها أو في تبيان آثارها[65].

والآن أخالك تشوقت إلى أن نتدبر سوياً ترابط هذه المقاطع، فأنت ترى الآيات من [182-189] في موضوع واحد، فهي تبين فرض الصيام وأحكامه، وختمت بآية الأهلّة، والتي بها يثبت شهر رمضان والحج، واستطردت[66] أثناء ذلك في حث العبد على العبودية لله تعالى بالدعاء في الآية [186]، حيث الصيام يصقل النفس ويهذب شهوتها، فيخشع القلب ويصدق الدعاء، فيكون العبد بذلك قريباً من ربه، ويكون به أقرب إلى رحمة الله وفضله باستجابة دعائه، كما استطردت إلى النهي عن أكل الأموال بالباطل في الآية [188]، ولعلك توافقني أن المناسبة جلية، فإن كان الصيام امتناعاً عن الأكل المباح وتقييداً للشهوات المباحة في نهار رمضان، فيجدر بالمؤمن أن يكبح جماح شهوته عن أكل الأموال بالباطل في سائر الأيام، وما الصيام إلا تدريب على ذلك. ثم كان المقطع التالي في الأمر بقتال المقاتلين وبيان أحكام متعلقة به من الآية [190-195] ولا عجب، فالمجاهد يحتاج إلى إرادة قوية يملك بها شهوته، بل يترفع بها عن الدنيا لتكون في يده لا في قلبه، يلقيها عندما يشاء، ويستجيب إلى نداء الجهاد تاركاً الدنيا ومباحاتها، كما يمتنع عنها عند سماع نداء الفجر للصيام، بل اعلم أن هذا الترابط بين الآيات وافقه الترابط واقعاً[67]. ولما كان الجهاد قوة لتطهير بلد الله الحرام ثم قوة رادعة للعدو مؤمّنة لسلامة الطرق عبر الزمان، جاءت آيات في الحج وأحكامه من الآية [196-203] مستهلة بحكم الإحصار عن إتمام أداء الحج والعمرة، والذي يغلب أن يكون من العدو. وبهذا يخرج المتدبر لوجوه الترابط بين هذه المقاطع بدلالات منها: أن الجهاد لا يقل في أهميته عن أركان الإسلام، حيث توسط ذكره بين ركني الصيام والحج.

وأن أحكام الإسلام تعمل في حياة المسلمين بصورة مترابطة مع بعضها، فإن كان الصيام تدريباً للعبد أن يكون مالكاً لشهوته لا مملوكاً لها، فإن الجهاد قوة تُؤمّن للمسلمين أداء طاعتهم لله؛ لأن ظهور العدو وتمكنه منهم يُفسدها عليهم. ولذلك أنكر الله الأخذ ببعض الأحكام دون بعضها في قوله: {أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ} [البقرة: 85]؛ لأنه

بالأخذ بأحكام الإسلام مجتمعة يظهر كمال الدين وجماله وتميزه.

وهذا شأن القرآن الكريم في ترابط كل موضوعات سوره[68]، ولكن يدرك ترابطها من كان صاحب علم ودراية وبصر وبصيرة، إذا سبق ذلك الإيمان، وعلاه الإخلاص، ورافقه حضور القلب وعدم الغفلة والعصيان.

ومما يزيدك إعظاماً لشأن إعجاز القرآن بترابط موضوعات السورة القرآنية إذا ما أدركت تجاوز الإعجاز للأسباب والدواعي المفككة لهذا الترابط.

المطلب الثالث: ترابط الموضوعات في السورة مع وفرة الأسباب والدواعي المفككة لنظمها وتناسقها قوة في الإعجاز البنائي

إنه من عجيب نظم كتاب الله وقوة إعجازه وعظمة شأنه، أنك تجد السور القرآنية تنزل نجوماً، وربما في أزمان متطاولة في العهد المكي أو في العهد المدني أو بين العهدين وفي ظروف مختلفة، وحسب وقائع ودواع متعددة، ومع كل هذه الأسباب المفككة لوحدة الكلام، تجد آيات السورة وموضوعاتها متسقة متناسبة محكمة البناء، حتى لتظن أنها نزلت مرة واحدة، بل إن هذا الظن ليتبادر لك في القرآن[69] كأنه نزل جملة واحدة ولم يفرق في نيف وعشرين سنة !

فهذا الإمام الزركشي بين لنا أن الآيات وإن تعددت الأسباب المفككة لنظمها إلا أنها تتعانق بموضوعاتها، حيث قال: وقد تنزل الآيات على الأسباب الخاصة، وتوضع كل واحدة منها مع ما يناسبها من الآي رعاية لنظم القرآن وحسن السياق"[70]. وقال: "قال بعض مشايخنا[71] المحققين: قد وَهِم من قال: لا يُطلب للآي الكريمة مناسبة؛ لأنها على حسب الوقائع المتفرقة. وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلاً، وعلى حسب الحكمة ترتيباً وتأصيلاً...". [72]

ويتحدث الدكتور دراز عن أسباب التفكك ودواعيه[73] في كتابه النبأ العظيم وكيف تعالى الإعجاز القرآني عليها حيث يقول: "فإن كنت قد أعجبك من القرآن نظام تأليفه البياني في القطعة منه، حيث الموضوع واحد بطبيعته، فهلم إلى النظر في السورة منه، حيث الموضوعات شتى والظروف متفاوتة لترى من هذا النظام ما هو أدخل في الإعجاب والإعجاز.

أوَلست تعلم أن القرآن– في جُل أمره– ما كان ينزل بهذه المعاني المختلفة جملة واحدة، بل كان يتنزل بها آحاداً مفرقة على حسب الوقائع والدواعي المتجددة، وأن هذا الانفصال الزماني بينها والاختلاف الذاتي بين دواعيها كان بطبيعته مستتبعاً لانفصال الحديث عنها على ضرب من الاستقلال والاستئناف لا يدع بينها منزعاً للتواصل؟

ألم يكن هذان السببان قوتين متضافرتين على تفكيك وحدة الكلام وتقطيع أوصاله إذا أريد نظم طائفة من تلك الأحاديث في سلك واحد تحت اسم سورة واحدة؟... وسبب ثالث كان أجدر أن يزيد نظم السورة تفكيكاً ووحدتها تمزيقاً، ذلك هو الطريقة التي اتبعت في ضم نجوم القرآن بعضها إلى بعض وفي تأليف وحدات السور في تلك النجوم..."[74].

وأقول: إن ورود الآيات التنزيلي بوساطة جبريل عليه السلام على قلب النبي عليه الصلاة والسلام غير وضعها الترتيبي الذي كان يُؤمر به صلى الله عليه وسلم ويُعَلِّمه كُتَّاب الوحي[75]، فهي نجوم تُضم بعضها إلى بعض، وقد نزلت في أزمنة متفاوتة منفصلة متباعدة ما بين مكة– والحال فيها الدعوة إلى الله، مع اضطهاد المسلمين– والمدينة– والحال فيها قيام الدولة بعد الهجرة، مع التمكين للمسلمين وكمال الدِّين والتبليغ– فالوقائع مختلفة والدواعي متجددة وأسباب النزول متعددة، ومع كل ذلك لحمة بين الموضوعات والآيات في السورة، وكأنها نزلت مجتمعة، وما هذا إلا مظهر من مظاهر الإعجاز ودلالة صدق المرسل به، حيث يعجز البشر عن مثله، نعم إن الترابط بين آيات السورة القرآنية وموضوعاتها يشهد أنه كلام الله الذي ليس كمثله شيء، ولا يشابهه كلام.

فهذا الأستاذ الرافعي (1356هـ) يرى أن القرآن تفرق معجزاً، ولمّا اجتمع اجتمع معجزاً، وما ذلك إلا لروح تسري فيه حيث يقول: "وبالجملة فإن هذا الإعجاز في معاني القرآن أمر لا ريب فيه، وهو أبلغ في معناه الإلهي إذا انتهيت إلى أن السورة لم تنزل على هذا الترتيب، فكان الأحرى ألا تلتئم، وأن لا يناسب بعضها بعضاً، وأن تذهب آياتها في الخلاف كل مذهب، **ولكنه روح من أمر الله تفرق معجزاً، فلما اجتمع اجتمع له إعجاز آخر**"[76].

إنه بحق لهو الإعجاز البنائي. بل إن من تعاظم هذا الإعجاز في القرآن الكريم، أن الترابط بين الموضوعات في السورة – مع هذه الأسباب والدواعي المفككة للنظم التي تعالى عليها– **ترابطاً ذاتياً ! وإليك بيان ذلك:**

إن الدارس لوجوه الترابط بين موضوعات السورة القرآنية، يراها أنها تتحقق بأمر ذاتي من جهة المعاني، لا بأمر خارجي عنها، وهو مما يؤكد حقيقة إعجاز القرآن الكريم البنائي وتعاظمه.

إنها روح تسري بيّن الكلمات والجمل والآيات والموضوعات في السورة القرآنية، هي روح تبعث في كلام الله نوراً وحياة تجمع أواصر ما تفرق، وكأنه لحمة واحدة، كتلك الروح التي تجمع أعضاء جسم الإنسان، حتى إذا ما اشتكى عضو تداعت

له سائر الأعضاء.

لذلك نجد الأستاذ الرافعي يقرر أن الرابط بين موضوعات السورة تلك الروح الجامعة بين ما لا يمكن أن يلتئم إلا بها، ويرى أن هذه الروح التركيبية هي التي لا يُدركها البلغاء فيعتري كلامهم النقص، حيث يقول: "ولولا تلك الروح (روح التركيب) لخرج – القرآن– أجزاء متفاوتة، على مقدار ما بين هذه المعاني ومواقعها في النفوس؛ وعلى مقدار ما بين الألفاظ والأساليب التي تؤديها حقيقة ومجازاً. كما تعرفه في كلام البلغاء عند تباين الوجوه التي يتصرف فيها... وإنما وقع للبلغاء هذا النقص من جهة التركيب، إذ ليس في كلامهم روح كروح النظم في القرآن، ولا هذه الروح مما تُطوعه قُوى الخلق"[77].

ويرى أن هذه الروح التركيبية لألفاظه وآياته وموضوعاته بمعانيها هي صفة إعجازه، التي انفرد فيها نظمه، بل كما قلت هي سرّ الإعجاز البنائي، ويقول: "وهذه الروح التي أومأنا إليها، (روح التركيب)، لم تعرف قطّ في كلام عربي غير القرآن، وبها انفرد نظمه وخرج مما يطيقه الناس، ولولاها لم يكن بحيث هو كأنما وضع جملة واحدة، ليس بين أجزائها تفاوت أو تباين، إذ تراه ينظر في التركيب إلى نظم الكلمة وتأليفها، ثم إلى تأليف هذا النظم: فمن ههنا تعلق بعضه على بعض، وخرج في معنى تلك الروح صفة واحدة؛ هي صفة إعجازه في جملة التركيب كما عرفت، وإن كان فما وراء ذلك متعدد الوجوه التي يتصرف فيها من أغراض الكلام ومناحي العبارات على جملة ما حصل به من جهات الخطاب: كالقصص والمواعظ والحكم والتعليم وضرب الأمثال إلى نحوها مما يدور عليه"[78].

ويذهب الأستاذ سيد قطب إلى ما ذهب إليه الأستاذ الرافعي في أن الرابط بين الموضوعات ذاتي، فيرى أن لكل سورة روحاً تسري بين موضوعاتها ومحوراً تنشد إليه، وتدور في فلكه، حيث يقول: "ومن ثم يلحظ من يعيش في ظلال القرآن أن لكل سورة من سور القرآن شخصية مميزة ! شخصية لها روح يعيش معها القلب كما لو كان يعيش مع روح حي مميز الملامح والسمات والأنفاس! ولها موضوع رئيسي أو موضوعات رئيسية مشدودة على محور خاص. ولها جو خاص يظلل موضوعاتها كلها؛ ويجعل سياقها يتناول هذه الموضوعات من جوانب معينة. تحقق التناسق بينها وفق هذا الجو... وهذا طابع عام في سور القرآن جميعاً..."[79].

ويرى الدكتور دراز أن هذه الموضوعات في السورة تلتحم ببعضها بعضاً وأن رباطها موضعي من أنفسها – رباط ذاتي لا خارجي – حيث يقول: "فلا تزال تنتقل بين أجزائها – يعني السورة – كما تنتقل بين حُجُرات وأفنية في بنيان واحد قد وُضع رسمه مرة واحدة، لا تُحسّ بشيء من تناكر الأوضاع في التقسيم والتنسيق، ولا بشيء من الانفصال في الخروج من طريق إلى طريق، بل ترى بين الأجناس المختلفة تمام الألفة، كما ترى بين آحاد الجنس الواحد نهاية التضامّ والإلتحام. كل ذلك بغير تكلف ولا استعانة بأمر من خارج المعاني أنفسها، وإنما هو حُسن السياقة ولطف التمهيد في مطلع كل غرض ومقطعه وأثنائه، يريك المنفصل متصلاً، والمختلف مؤتلفاً. ولماذا نقول إن هذه المعاني تتسق في السورة كما تتسق الحجرات في البنيان؟! لا بل إنها لتلتحم فيها كما تلتحم الأعضاء في جسم الإنسان، فبين كل قطعة وجارتها رباط موضعي من أنفسهما"[80] ، ويقول: "اعمد إلى سورة من تلك السور التي تتناول أكثر من معنى واحد، وما أكثرها في القرآن– فهي جمهرته– وتنقل بفكرتك معها مرحلة مرحلة، ثم ارجع البصر كرتين: كيف بدئت؟ وكيف ختمت؟ وكيف تقابلت أوضاعها وتعادلت؟ وكيف تلاقت أركانها وتعانقت؟ وكيف ازدوجت مقدماتها بنتائجها ووطأت أُولاها لأُخراها؟... وأنا لك زعيم بأنك لن تجد ألبتة في نظام معانيها أو مبانيها ما تعرف به أكانت هذه السور قد نزلت في نجم واحد أم في نجوم شتى، ولسوف تحسب أن السبع الطوال من سور القرآن قد نزلت كل واحدة منها دفعة، حتى يحدثك التاريخ أنها كلها أو جلها قد نزلت نجوماً..."[81].

كما يرى رحمه الله أن لكل سورة تخطيطاً حقيقياً بديعاً حيث يقول: "فقد كنا نبحث عمّا إذا كان هناك نوع من الترابط في الأفكار التي تتناولها السورة الواحدة، ولقد وضح لنا بما أثار دهشتنا أن هناك تخطيطاً واضحاً محدداً يتكون من ديباجة وموضوع وخاتمة، فتوضح الآيات الافتتاحية الأولى من السورة الموضوع الذي ستعالجه في خطوطه الرئيسية، ثم يتبع ذلك التدرج في عرض الموضوع بنظام لا يتداخل فيه جزء من جزء آخر، وإنما يحتل كل جزء المكان المناسب له في جملة السورة، وأخيراً تأتي الخاتمة التي تقابل الديباجة"[82].

وهذه الروح التي تسري بين موضوعات السور أو تلك اللحمة بينها أو ذلك المحور الذي تنشد إليه وتدور في فلكه موضوعات السور، كما جاءت في أقوال أساتذة العصر الحديث الرافعي ودراز وسيد قطب –عليهم الرحمة–هي ما اصطلح على تسميتها عند آخرين من المعاصرين في العقود الثلاثة الأخيرة بالوحدة الموضوعية كما ظهر ذلك جلياً في دراسات الدكتور محمد محمود حجازي– رحمه الله– وغيره.

وإن كانت الوحدة الموضوعية[83] تبلورت كدراسة نظرية حديثاً فإن للسابقين إشارات تدعو إليها وبعداً تطبيقياً:

– **فهذا الإمام الشاطبي (790هـ)** يقول "غير أن الكلام

المنظور فيه تارة يكون واحداً بكل اعتبار بمعنى أنه أنزل في قضية واحدة طالت أم قصرت..."[84]. ويضرب مثالاً فيقول "إن سورة المؤمنين نازلة في قضية واحدة وإن اشتملت على معانٍ كثيرة فإنها من المكيات، وغالب المكي مقرر لثلاثة معان أصلها معنى واحد وهو الدعاء إلى عبادة الله تعالى"[85].

– **وهذا الإمام البقاعي** يشبه لنا السورة القرآنية بدائرة كبرى فيها دوائر صغرى، ويشبهها بساق شجرة تتفرع منه الأغصان حيث يقول: "فإن كل سورة لها مقصد واحد يدار عليه أولها وآخرها، ويستدل عليه فيها، فترتب المقدمات الدالة عليه على أتقن وجه وأبدع نهج...."[86]. ويقول: "فصارت كل سورة دائرة كبرى مشتملة على دوائر الآيات الغُرّ، البديعة النظم، العجيبة الضم، بلين تعاطف أفنانها وحسن تواصل ثمارها وأغصانها"[87]. فترى قوله واضحاً في الوحدة الموضوعية ونحو هذا قال سيد قطب – كما أسلفنا– لكل سورة محور تنشد إليه موضوعات السورة وتدور في فلكه.

وبعد هذا العرض لأقوال العلماء المحدثين وإشارات السابقين في الوحدة الموضوعية: نتبين أن الترابط بين الموضوعات في السورة إنما هو لأمر ذاتي من جهة المعاني لا لأمر خارجي عنها، وفي هذا دلالة واضحة– كما أكد العلماء– على قوة الإعجاز الذي يؤكد بدوره مظهر الإعجاز البنائي بترابط موضوعات السورة القرآنية الواحدة مع وفرة الأسباب والدواعي المفككة له.

المطلب الرابع: دراسة تطبيقية

هذه دراسة تطبيقية نتمثل بها تعالي القرآن على أسباب التفكك، من تباعد زمني وتعدد ظروف نزول الآيات، وذلك قوله تعالى في سورة الحديد: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ} [سورة الحديد: 16]، حيث نقل الزركشي والسيوطي[88] اتفاق العلماء على مدنية سورة الحديد، إلا هذه الآية فهي مكية، لما روي عن ابن مسعود رضي الله عنه، حيث قال: "ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية " أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ " إلا أربع سنين"[89].

فأفادتنا الرواية تقدم نزول الآية في العهد المكي، والناظر في الآيات التي قبلها تضمنت الثناء على من أنفق قبل الفتح وقاتل، قال تعالى: { لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [الحديد: 10]، مما يفيد نزول هذه الآيات بعد فتح مكة في العام الثامن من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم، ثم بيّن الله الأجر الكريم لمن أنفق وأقرض الله قرضاً حسناً، يوم يجعل الله لهم نوراً يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، ثم بين الله قول المنافقين والمنافقات وطلبهم أن يقتبسوا من نور المؤمنين.

ثم تأتي هذه الآية التي يدعو الله بها المؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكره، وكان الحث على الإنفاق قبل الترغيب بالخشوع ؛ لأن المنفق متحرر قلبه من الدنيا قابضاً عليها بيده، منفلتاً من أغلال شهواتها، فلا تتمكن منه فيقسو قلبه، ليدلنا الله بذلك على أن تحقق النور للمؤمن يوم القيامة بالإنفاق وبذكره سبحانه.

ثم جاء قوله سبحانه: {اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} ليبث الأمل فيمن لم يُنِر بصيرته ويُزْهِر قلبه بالذكر أن الباب لم يُؤْصَد، وذلك لأن الله يحيي الأرض بعد موتها، ويْكَأَنّ الله سبحانه يقول: يا عبدي اسق قلبك بماء الذكر ليُزْهِر من جديد ولتنقشع عن بصيرتك الغُلف.

وأخالك توافقني كيف جاءت الآيات مترابطة لا مفككة مع البعد الزمني بين السنة الرابعة من بعثة النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون مضطهدون وبين آيات من السورة بعد العام الثامن من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون في دولتهم منتصرون، إنه لكلام الله المتعالي.

وأقول: لا يشترط نزول صدر السورة قبل نزول بعضها، ومما يقطع بهذا –على سبيل المثال – أن سورة الممتحنة نزلت فيها آيات امتحان المؤمنات المهاجرات إثر صلح الحديبية، كما في حديث البخاري الطويل في قصة الصلح: "ثم جاءه نسوة مؤمنات فأنزل الله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ } حتى بلغ { وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ} [الممتحنة:10] فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك..."[90].

بينما نزل صدر السورة بعد ذلك في قصة حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه، كما في حديث البخاري ومسلم "يخبر أهل مكة ببعض أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم... فأنزل الله الى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ} [الممتحنة:1][91]. واستشهد به البخاري في باب (غزوة الفتح وما بعث به حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة يخبرهم بغزو النبي صلى الله عليه وسلم)[92]، وهو ما عليه عموم المفسرين وأصحاب السِّير. وبهذا أثبتنا بالنقل[93] الذي لا محيد عنه بإمكان نزول بعض السورة قبل صدرها، وبه تجلى التأكيد على الترابط بين الموضوعات في السورة والتعالي على أسباب التفكك؛ لأنه كلام الله.

نتائج الدراسة والخاتمة

بعد هذه الدراسة لقضية الترابط بين موضوعات السورة القرآنية، والتطواف في مؤلفات العلماء السابقين والمحدثين في موضوع الدراسة، وبعد هذه المناقشات والتحليلات والاستدلالات أخلص إلى النتائج التالية:

- إن تنقل السورة بقارئها من موضوع إلى آخر بأرقى درجات النظم إحكاماً وأعلى طبقات البلاغة بهاء، لمظهر من مظاهر إعجاز القرآن البياني، وشاهد على كمال قائله، فكلامه لا يشابهه كلام، وخرق لعادة البلغاء في كلامهم المنظوم، حيث تتفاوت فصاحتهم، وتتمايز بلاغتهم، ويعتريهم النقص عند التنقل من موضوع إلى آخر، بل قد لا يُجيد أحدهم النظم إلا في نوع من وجوه القول.
- إن ترابط موضوعات السورة القرآنية وتناسبها وتناسقها مع تنوع أساليب وطرق الأداء، وتعاليه على الدواعي المفككة للنظم من تنجيم وتباعد زمني حتى تكتمل آيات السورة في نزولها، وتعدد لموضوعاتها ومعانيها، وتباين لظروف نزولها وأسبابه، لشاهد على ألوهية القرآن الكريم وربانية مصدره، وصدق من أنزل عليه، وأرسل به، وهو بحق وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم، إنه من مظاهر الإعجاز البنائي!
- وإن هذا الترابط بين موضوعات السورة القرآنية الواحدة لأمر ذاتي من المعاني لا لأمر خارجي، فيما يؤكد إعجازه البنائي وقوة نظمه ويقويهما.
- بينت الدراسة أن العلماء السابقين سطروا إشارات وأصولاً عامة في حقيقة الترابط بين الموضوعات في السورة القرآنية وبعدها الإعجازي، وعُني به المحدثون واصطلحوا عليه بالوحدة الموضوعية، كما إن لبعض علمائنا المحققين والمدققين من السابقين والمحدثين– جهوداً عملية طيبة في الكشف عن حقيقة الترابط القرآني بأبعاده الثلاثة: الترابط والتناسب بين الآيات، وبين مقاطع وموضوعات السورة القرآنية، وبين سوره كلها. وهذه الأسفار المدونة في تفسير القرآن شاهدة على ذلك حرروا فيها وجوه الترابط ليشاهد القارئ بُعدها الإعجازي، وجمال الكتاب الرباني؛ في تناسق ألفاظه وحسن رصف جمله، ودقة ترتيب آياته وتناسق موضوعات سوره وتناسبها في معانيها المتلائمة المتلاحمة المنتظمة، حتى ليظن القارئ لكتاب الله وكأنه أنزل جملة واحدة.
- أقول: لله حكمة في ترتيب آيات القرآن المجيد في اللوح المحفوظ. وعلى المفسرين وجوب التدبر في سرّ ترتيبها، ولمّا كانت وجوه الترابط والتناسب بين الموضوعات في السورة القرآنية عقلية اجتهادية، ولمّا كانت مقدرة العلماء الباحثين والمتأملين فيها متفاوتة، ترى تبايناً في تلك الوجوه التي يذكرونها، ليبقى القرآن كتاب الله المفتوح، لا يَخْلَق على كثرة الردّ، ويبقى العَوْد إليه موصولاً بالعَوْد؛ لأن ثواب المتدبرين فيه يَتْرا.
- وأخيراً إن دراسات السابقين في مختلف العلوم هي إضاءات للمحدثين في طريق العلم وتلمس الجديد، وهي أساس ينطلقون منه ويبنون عليه.

وهذا ما وفقني الله إليه، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله، والتابعين له بإحسان إلى يوم الدين، والله أسأل أن يتقبل منا هذا الجهد ومن كل من خدم الإسلام وعلومه، إنه سميع الدعاء.

الهوامش

(1) دراستي هذه تبحث في مظاهر الإعجاز في نظم القرآن الكريم وفصاحته، مع تعدد موضوعات السورة القرآنية ووفرة الدواعي المفككة لنظمه، مستشهداً بأقوال أجلة من العلماء السابقين والمحدثين، ومبرهناً بدراسة تطبيقية، بخلاف دراسات جزئية نحو: "حسن التخلص في القرآن الكريم دراسة بلاغية، آلاء أحمد حسن"، وكتاب: "الاستطراد في القرآن ، محمد نصيف جاسم الجبوري"، وبخلاف دراسات تطبيقية فيما كتبه الدكتور دراز عن الوحدة في سورة البقرة في كتابه " النبأ العظيم" والدكتور أبو موسى في دراسته التحليلية لسورة الأحزاب والحواميم والتي تكشف عن الوجوه البلاغية وأثرها على معاني الآيات.

(2) أبين تعريف المناسبة اصطلاحا، دون ذكر جهود العلماء في التأليف فيها، وأنواع الروابط ، وأشكال الانتقال بين الموضوعات، وذلك لأن للبحوث في المجلات المحكّمة حداً من حيث عدد صفحاتها، ولي دراسة مستقلة في منهج المناسبات – مودعة في مكتبة الجامعة الأردنية، تناولت فيها هذه المفردات بتوسع .

(3) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ط2، (131/1 و135).

(4) السيوطي، الإتقان، ط2، (976/2).
(5) الراغب الأصفهاني، مقدمة جامع التفاسير، ط1، (ص106-107).
(6) ابن النقيب، الفوائد المشوق، ط2، (ص128).
(7) البقاعي، مصاعد النظر للأشراف على مقاصد السور، ط1، (1/ 142).
(8) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ط1، (5/1).
(9) من أبرز المفسرين السابقين اعتناء بالمناسبة الإمام الرازي (606هـ) في تفسيره الكبير، والإمام البقاعي (885هـ) في تفسيره نظم الدرر في تناسب الآيات والسور.
(10) ممن أفرد التأليف في الوحدة الموضوعية من المحدثين الدكتور محمد حجازي، واعتنى بها الدكتور محمد عبدالله دراز في كتابه النبأ العظيم.
(11) من أبرز المفسرين المحدثين عناية بالوحدة الموضوعية سيد قطب (1387هـ) في تفسيره (في ظلال القرآن) وسعيد حوى (1409هـ) في تفسيره (الأساس).
(12) انظر: الدباغ، وجوه من الإعجاز القرآني، ط2، (ص41).
(13) الرماني، رسالة النكت في إعجاز القرآن ضمن كتاب ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، لم تذكر السنة، (ص111).
(14) الباقلاني، إعجاز القرآن، ط1، (ص86).
(15) المرجع السابق (ص87)
(16) المرجع السابق، (ص225-226) بتصرف.
(17) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ط3، (ص82، 405،392).
(18) المرجع السابق، (ص56).
(19) انظر: المرجع السابق، (ص87) بتصرف.
(20) انظر: المرجع السابق، (ص55) بتصرف.
(21) المرجع السابق، (ص402).
(22) المرجع السابق، (ص392).
(23) دراز، النبأ العظيم، دار القلم، الكويت، (ص144 من الحاشية).
(24) قطب، التصوير الفني في القرآن، ط7، (ص36-37) بتصرف.
(25) أعظم أنواع الشكر: الشكر بالعمل، بدلالة أن القليل من يشكر الله بذلك، قال سبحانه: (اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيْلٌ مِن عِبَادِيَ الْشَكُوْرُ) [سبأ: 13]، وقال: (وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ والْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيْلاً مَا تَشْكُرُونَ) [السجدة: 9].
(26) يقول الزمخشري: "جمل أَوّل وناقة أَوّلة إذا تقدما على الإبل"، محمود بن عمر، أساس البلاغة، ط1، (ص27)، ونحوه عند الراغب الأصفهاني، مفرادات ألفاظ القرآن، (ص100)، ونحوه عند الرازي، مختار الصحاح، (ص27).
(27) انظر: الزمخشري، الكشاف، ط1، (96/4).
(28) انظر: المرجع السابق، نفس الصفحة. وابن عاشور، التحرير والتنوير، (277/24).
(29) انظر: الآلوسي، روح المعاني، ط1، (201/12).
(30) انظر: الزمخشري، (96/4). وابن عطية، عبد الحق، المحرر الوجيز، ط1، (509/4).
(31) انظر: المرجعين السابقين، نفس صفحاتهما. والآلوسي، (201/12).
(32) "اعلم أن اللفظ إذا كان على وزن من الأوزان ثم نُقل إلى وزن آخر أعلى منه، فلا بُد أن يتضمن من المعنى أكثر مما تضمنه أولاً، لأن الألفاظ أدلة على المعاني، فإذا زيدت في الألفاظ وجب زيادة المعاني ضرورة" الزركشي، (116/3).
(33) يرى كثير من المفسرين أن هذا من الأساليب بين الكلامين، انظر: الزمخشري، الكشاف، (96/4) والرازي، التفسير الكبير، ط1، (401/9) والسمين الحلبي، الدر المصون، ط1، (382/9) وابن عاشور، التحرير والتنوير، (380/24). ولكن أقول: القرآن ينتقل من موضوع إلى آخر في مواضع كثيرة دون استعمال هذا الأسلوب، والناظر في السورة يرى توافقه مع نسقها وأساليب أخرى لعرض معانيها، وهو مما يندرج تحت أسلوب عام يُعرف عند العلماء بالتخلص، وهو: "أن يأخذ المتكلم في معنى من المعاني، فينما هو فيه إذ أخذ في معنى غيره، وجعل الأول سبباً له" ابن النقيب، الفوائد المشوق، (ص140).
(34) يسميها سيد قطب: بالتخييل الحسي، انظر: قطب، التصوير الفني، (ص71-72).
(35) يقول ابن سنان (466هـ): "المختار في الفصاحة، وما يدل عليه البلاغة في الكلام: أن يكون اللفظ القليل يدل على المعنى الكثير دلالة واضحة ظاهرة "ابن سنان، عبدالله بن محمد، سر الفصاحة، 1982م، (ص207). ويقول ابن الأثير (637هـ): "وهذا النوع - ما دلّ على محتملات متعددة - هو أعلى طبقات الإيجاز مكاناً، وأعوزها إمكاناً، وإذا وجد في كلام بعض البلغاء فإنما يوجد شاذاً نادراً، ويكثر ذلك في كتاب الله تبارك وتعالى "ابن الأثير، ضياء الدين نصر الله بن محمد، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ط1، (ص217). والإيجاز قسمان إيجاز حذف وإيجاز قصر، انظر تفصيل هذا: عباس، البلاغة فنونها وأفنانها (علم المعاني)، ط 2، (ص 475 وما بعدها).
(36) تَرَبَ: لها أصلان، أحدهما : التراب وما يشتق منه، والآخر: تساوي الشيئين، ومنه التريب عند تساوي رؤوس العظام، انظر: ابن فارس، أحمد، معجم مقاييس اللغة، ط1، (346/1) بتصرف، ويقول ابن منظور: "التِّرب: اللدّة والسن، وأكثر ما يكون في المؤنث"، لسان العرب، (231/1).
(37) يقول الرازي: "قالوا: أترب الرجل: استغنى، كأنه صار له من المال بقدر التراب"، مختار الصحاح، ص47).
(38) نفد: "يقول ابن فارس: أصل صحيح يدل على انقطاع شيء"، معجم مقايس اللغة، (485/5) بتصرف. ويقول ابن منظور: "يقال فني الشيء: إذا ذهب، وقالوا: استنفد وسعه: استفرغه، وإن في ماله لمنفداً: أي سعة"، لسان العرب،

(425/3) بتصرف.

(39) الأوْب: "ضرب من الرجوع، وذلك أن الأوب لا يُقال الإ في الحيوان الذي له إرادة، والرجوع يُقال فيه وفي غيره... والمآب المصدر منه واسم الزمان والمكان"، انظر: الراغب الأصفهاني، المفردات، (ص97) بتصرف.

(40) "الممهد: المفترش، مستعار من فراش النائم" البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، بيروت، 1998م.

(41) لقوله تعالى: {لَهُم شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ } [الأنعام : 7]، ووصفه في آيات بتصوير محسوس، فهو يُقدم إليهم بعد أن يستغيثوا لشدة ما يُصيبهم من العطش، فيشوي وجوههم قبل شربه – كما في سورة الكهف [آية: 29] – ثم إذا تجرعه يغلي في بطونهم – كما في سورة الدُخَان [آية: 46] – ثم يَصهر ما فيها والجلود – كما في سورة الحج [آية: 20].

(42) وسرّ ذلك؛ لأن المتذوق يتريث قبل البلع بتحريك ما يتذوقه داخل فِيْه ليجد طعمه، وهؤلاء لسوء حالهم وصفة شرابهم وطبيعته، لا يستسيغ أحدهم بلعه فيُحركه ثم يتجرعه تجرعاً كما في قوله تعالى: {يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ} [إبراهيم17]، فيجد ألمه ويتمكن منه كتمكن الاحساس لما يذوقه اللسان، وتصويراً لشدة هذه المعاناة قال تعالى في نفس الآية: {وَيَأْتِيهِ المَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ}.

(43) "يُقال غَسِقت العين: دمعت وأظلمت – كأنها من كثرة الدمع تُظلم – وغسق الجرح: سال منه ماء أصفر، والغساق المنتن البارد، شديد البرد الذي يحرق من برده كإحراق الحميم، لذا قيل ليل غاسق؛ لأنه أبرد من النهار" انظر: ابن منظور، لسان العرب، (289/10) بتصرف.

(44) "عن ابن عباس رضي الله عنهما وعن عطاء وقتادة: أنه ما يجري من صديد أهل النار، وعن السديّ: ما يسيل من دموعهم، وعن ابن عمر: القيح يسيل منهم، وفي رواية أخرى عن ابن عباس رضي الله عنهما: الزمهرير " انظر: الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ط1، (207/23). قلت: لمّا كان وزن غسّاق يغلب في الصفات، فلعلها تُصيبهم جميع هذه الأصناف من العذاب، ومما يشهد – لقول ابن عباس وفيما ذكره ابن منظور– على التعذيب بالزمهرير في جهنم، مفهوم المخالفة في قوله تعالى في شأن أهل الجنة: {مُتَّكِئِيْنَ فِيْهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيْهَا شَمْسَاً وَلَا زَمْهَرِيْرَاً} [الإنسان:13].

(45) دلّ على التزاحم والتدافع قوله سبحانه: (مقتحمين معكم). وقال ابن فارس: "قحم في الأمور قحوماً: رمى نفسه فيها من غير دُربة"، معجم مقايس اللغة، (61/5). وقال ابن منظور: "تقحيم النفس في الشيء ادخالها فيه من غير روية"، لسان العرب، (462/12).

(46) المُفْلِق: "يقال أفلق فلان اليوم، وهو يفلق إذا جاء بعجب، وشاعر مفلق: أي مجيد، يجيء بالعجائب في شعره"، ابن منظور/ لسان العرب (309/10–311) بتصرف.

(47) المِصْقَع: "يقال خطيب مصقع: أي بليغ وقيل هو: من رفع الصوت، وقيل: يذهب في كل صَقع من الكلام، وفي حديث حذيفة "شر الناس في الفتنة الخطيب المصقع" أي البليغ الماهر في خطبته الداعي إلى الفتنة الذي يحرض الناس عليها، وهو مفعل من الصّقع: رفع الصوت" لسان العرب (203/8) بتصرف.

(48) قال الباقلاني: "ونجد كلام البليغ الكامل والشاعر المُفْلِق والخطيب المِصْقَع يختلف على حسب اختلاف هذه الأمور فمن الشعراء من يجود في المدح دون الهجو ومنهم من يبرز في الهجو دون المدح، ومنهم من يسبق في التقريط دون التأبين... ومثل ذلك يختلف في الخطب والرسائل وسائر أجناس الكلام"، إعجاز القرآن، (ص87).

(49) الباقلاني، المرجع السابق، (ص88).

(50) عباس، دراسة إعجاز القرآن للباقلاني تحليل ونقد، (ص10).

(51) الخطيب، إعجاز القرآن، ط1، وانظر نحوه في: مبحث مقتضى الحال وداعية المقام (2/ 293).

(52) إعجاز القرآن الكريم من حيث بنائه على وجوه: بالنظر إلى: بُنية الكلمة، وإلى بُنية الجملة، وإلى بُنية آيات المقطع القرآني بترابطها، وترابط المقاطع في السورة. والأخير موضوع مبحثنا هذا .

(53) قوله هذا يشهد لما نتحدث عنه لأن التلاؤم بين موضوعات القرآن الكريم لا يكون إلا بالتلاؤم بين موضوعات سوره.

(54) الخطابي، البيان في إعجاز القرآن، ضمن كتاب ثلاث رسائل في الإعجاز (ص27–28).

(55) الباقلاني، إعجاز القرآن، (ص89).

(56) المرجع السابق (ص231).

(57) استجلاء موقف الإمام الرازي في بيان وشائج الترابط بين موضوعات هذه السورة يأخذ مساحة كبيرة في البحث مما قد يحول دون نشره في المجلة.

(58) الرازي، التفسير الكبير، (106/3–107).

(59) أبو زيد، التناسب البياني في القرآن، ط1، (ص36).

(60) الرازي، التفسير الكبير، (287/5).

(61) انظر: المرجع السابق، (279/5 و 281).

(62) انظر: المرجع السابق، (301/5).

(63) البقاعي، نظم الدرر، (361/1–362).

(64) قطب، في ظلال القرآن، ط7، (276/1).

(65) حوى، دار السلام، ط1، (438/1).

(66) الاستطراد هو: أن يأخذ المتكلم في معنى، فينما يَمُرّ فيه يأخذ في معنى آخر، ويجعل الأول سبباً له، انظر: القاسم، الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن، لم تذكر الدار، ط1، (ص319).

(67) فرض الصيام في السنة الثانية من الهجرة وفيها أذن بالقتال وكانت غزوة بدر الكبرى. انظر: الخضري، تاريخ التشريع الإسلامي، ط1، (ص41).

(68) فانظر مثلا: إلى جملة أخرى من الآيات في سورة البقرة من

الآية [261– 283] فترى آيات فيها الحث على الإنفاق والترغيب به وبيان أحكامه وآدابه، ثم آيات في تحريم الربا وإعلان الحرب على من لم يَذَر التعامل به بعد تحريمه، ثم آية في الدّين وكيفية توثيقه، وآية في الرهن عند انعدام سُبل توثيقه. فهلا تدبرت ما الرابط بينها! وكيف نصوغ جملاً تُعرب عن التناسق والانسجام بينها؟ ألا تتفق معي أن الإنفاق سد لحاجة المحتاجين، وأن الربا ما هو إلا استغلال لحاجتهم، لذلك جعل الله بين يدي تحريم الربا بديله الإنفاق لوجهه الكريم لقاء ثوابه العظيم. ثم أتبع تحريم الربا بديلا آخر القرض الحسن بالدّين المكتوب المُوَثَّق أو بالرهن مقابله لحفظ الحقوق، لينتفي النزاع بين العباد. فكأن الله يقول يا عبادي: سدوا حاجة المحتاجين زكاة وصدقة فأثيبكم عليها، فإن لم يكن فأقرضوهم قرضاً حسناً– دَيْناً– وأثيبكم عليه، كما في قوله سبحانه: {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ} [الحديد:11].

(69) يقول الزركشي في كلامه عن الترابط والتناسب: "وإذا ثبت هذا بالنسبة إلى السور فما ظنك بالآيات وتعلق بعضها ببعض، بل عند التأمل يظهر أن القرآن كله كالكلمة الواحدة" البرهان (136/1).

(70) الزركشي، البرهان، (119/1).

(71) قال البقاعي بعد نقله قول الزركشي هذا: "الشيخ المشار إليه هو: العارف ولي الله محمد بن أحمد الملوي المنفلوطي – (774هـ)–"، نظم الدرر، (1/ 6).

(72) الزركشي، البرهان، (133/1).

(73) ذكر الدكتور محمد حجازي في كتابه الوحدة الموضوعية نحواً مما قاله الدكتور دراز انظر: (ص: 54–55).

(74) دراز، النبأ العظيم، (ص: 144–146) بتصرف، وكان الدكتور دراز قد ذكر عشرة أسباب تزيد قضية الربط بين الموضوعات تفرداً، منها: ما امتاز به القرآن من إيجاز وسرعة التنقل بين شؤون القول من وصف إلى قصص إلى تشريع... وهذه الميزة تفتقد في كلام البشر إن أرادوا الربط بين شؤون قولهم، ولكن القرآن كلام الله المعجز، انظر هذا المعنى (ص144–145).

(75) هو الترتيب الذي أثبتت عليه الآيات في صحف أبي بكر رضي الله عنه، ثم نسخت على مثله زمن عثمان رضي الله عنه.

(76) الرافعي، إعجاز القران، ط2، (ص244) من الحاشية.

(77) المرجع السابق (ص245–246) بتصرف.

(78) المرجع السابق (ص245).

(79) قطب، في ظلال القرآن (23/1).

(80) دراز، النبأ العظيم (ص155).

(81) المرجع السابق (ص154).

(82) دراز، المدخل إلى القرآن ط1، (ص119). وأقول مما يؤكد أن لكل سورة وحدة موضوعية ومحوراً تنشد إليه موضوعات السورة، وتدور في فلكه، ومقصد كلي يَجْمعها، عدم الالتزام بالترتيب الطبيعي لحلقات القصة في القرآن، فمرة تعرض حلقة من أول القصة ومرة من وسطها ومرة من آخرها، ومرة كاملة، وانظر نحو هذا في كتاب التناسب البياني في القرآن للدكتور أحمد أبو زيد (ص167).

(83) هذه الدراسة تهدف للوقوف على مظاهر إعجاز القرآن بتعدد موضوعات السورة الواحدة، ولكني أثناء التجوال فيما كتب السابقون والمحدثون حول هذا الموضوع، أود أن أقدم خطوات مجملة في كيفية تحديد محور السورة ووحدتها الموضوعية وهي: استيفاء السورة جميعها بالنظر المتكرر بتدبر وتؤده ودعا إلى هذا الرافعي في كتابه إعجاز القرآن (ص259) والدكتور دراز في النبأ العظيم (ص144 وما بعدها) والدكتور أحمد بدوي في كتابه بلاغة القرآن (ص 232). ثم معرفة مكية السورة ومدنيتها، فلكلٍ موضوعات، واستفدت هذا من كلام الشاطبي أعلاه. ثم حصر الآيات التي تُكوّن المقدمة فإنها تهدي إلى محور السورة غالباً، ثم حصر الآيات التي تُكوّن الخاتمة، ودعا إلى هذا الدكتور دراز في النبأ العظيم (ص154). ثم تقسم السورة إلى مقاطع وتحدد آيات كل مقطع وعنوانه ومقصده. ثم تحديد تلك الروح التي تسري بين المقاطع مستنبطة من ذات معاني ومقاصد المقاطع ومقارنته بما مهدت إليه المقدمة وأوجزته الخاتمة، وهذا واضح في فعل سيد قطب رحمه الله. هذه هي خطوات مجملة تهدي إلى معرفة الوحدة الموضوعية، جاءت متناثرة في أقوال العلماء وجمعتها كما ترى والله الموفق.

(84) الشاطبي، الموافقات، ط2، (375/3).

(85) المرجع السابق (375/3).

(86) البقاعي، مصاعد النظر (149/1).

(87) المرجع السابق (149/1).

(88) انظر: الزركشي، البرهان، (281/1–281)، والسيوطي، الإتقان، (30/1).

(89) مسلم، الصحيح، رقم (3027). والنسائي في الكبرى، رقم (11568).

(90) انظر: الحديث عند البخاري، الصحيح (2731) (2732). وهو عند أبي داود (754)، وابن حبان (4872) وغيرهم.

(91) انظر: الحديث عند البخاري، الصحيح (4274). ومسلم، الصحيح (2494).

(92) انظر: البخاري، الصحيح، باب رقم (46) من كتاب المغازي. وانظر: شرح ابن حجر، الفتح (4875/8).

(93) انظر: دراسة تفصيلية كتبتهاعن المكي والمدني، ضمن رسالة الدكتوراة مودعة في مكتبة جامعة اليرموك.

المصادر والمراجع

الآلوسي، محمود، روح المعاني، 1994م، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1.

ابن الأثير، ضياء الدين نصر الله بن محمد، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة، 1959م، مكتبة نهضة مصر، ط1.

بدوي، أحمد، بلاغة القرآن، دار النهضة مصر، لم تذكر الطبعة ولا تاريخها.

الباقلاني، محمد بن الطيب، إعجاز القرآن، شرح وتعليق محمد الخفاجي، 1991م، دار الجيل، ط1.

البقاعي، إبراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآي والسور، تحقيق عبد الرزاق مهدي، 1995م، الكتب العلمية، ط1.

البقاعي، إبراهيم بن عمر، مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، تحقيق عبد السميع حسنين، 1987م، مكتبة المعارف، ط1.

البيضاوي، عبدالله بن عمر، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق ونشر دار إحياء التراث العربي، 1998م، بيروت، ط1.

الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود شاكر، 1992م، دار المدني، جدة، ط3.

حجازي، محمد محمود، 1970م، الوحدة الموضوعية في القرآن، دار الكتب الحديثة، ط1.

حوى، سعيد، 1985م، الأساس في التفسير، دار السلام، القاهرة، ط1.

الخضري، محمد، 1967م، تاريخ التشريع الإسلامي، دار الفكر، بيروت، ط1.

الخطابي، حمد بن سليمان، رسالة البيان في إعجاز فالقرآن، ضمن كتاب ثلاث رسائل في الإعجاز، تحقيق محمد خلف وآخرون، دار المعارف، ط4، لم يذكر تاريخها.

الخطيب، عبد الكريم، 1964م، إعجاز القرآن، دار الفكر العربي، ط1.

دراز، محمد عبد الله، النبأ العظيم، دار القلم، لم تذكر الطبعة ولا تاريخها.

دراز، محمد عبد الله، 1981م، مدخل إلى القرآن، دار القلم، ط3.

الدباغ، مصطفى، 1985م، وجوه من الإعجاز القرآني، مكتبة المنار، ط2.

الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، 1992م، مفرادات ألفاظ القرآن، تحقيق صفوان داوودي، دارالقلم.

الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، مقدمة جامع التفاسير، تحقيق أحمد فرحات، 1984م، دار الدعوة، ط1.

الرافعي، مصطفى صادق، 1999م، إعجاز القرآن، دار الكتاب العربي، ط2.

الرماني، علي بن عيسى، رسالة النكت في إعجاز القرآن ضمن كتاب ثلاث رسائل في الإعجاز، تحقيق محمد خلف الله وآخرون، دار المعارف، ط4، لم يذكر تاريخها.

الرازي، محمد بن عمر، التفسير الكبير، دار إحياء التراث ، ط1، 1995م.

الرازي، محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، تحقيق أحمد زهوة، 2004م، دار الكتاب العربي.

الزركشي، محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، تحقيق المرعشلي وآخرون، 1994م، دار المعرفة، ط2.

الزمخشري، محمود بن عمر، الكشاف ، ضبطه محمد عبد السلام شاهين، 1995م، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1.

الزمخشري، محمود بن عمر، أساس البلاغة، دار احياء التراث، بيروت، ط1، 2001م.

أبو زيد، أحمد، 1992م، التناسب البياني في القرآن، منشورات كلية الآداب، الرباط.

السمين الحلبي، أحمد بن يوسف، الدر المصون، تحقيق أحمد الخرّاط، 1987م، دار القلم، دمشق، ط1.

ابن سنان، عبدالله بن محمد، 1982م، سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1.

السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق مصطفى البُغا، 1993م، دار ابن كثير، دمشق، ط2.

الشاطبي، إبراهيم بن موسى، الموافقات، تحقيق عبد الله دراز، 1994م، دار المعرفة، ط1.

الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ضبطه وعلق عليه محمود شاكر، 2001م، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1.

ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، طبعة مصرية مصورة، لم تذكر دار النشر ولا تاريخ الطبعة.

عباس، فضل حسن، 1989م، البلاغة فنونها وأفنانها (علم المعاني)، دار الفرقان، ط 2.

عباس، فضل حسن، دراسة إعجاز القرآن للباقلاني تحليل ونقد، لم يطبع.

ابن عطية، عبد الحق، المحرر الوجيز، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، 2001م، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1.

ابن فارس، أحمد، معجم مقاييس اللغة، تحقيق شهاب الدين أبو عمرو، 1994م، دار الفكر، ط1.

القاسم، محمد، 1979م، الإعجاز البياني، لم تذكر الدار، ط1.

قطب، سيد، 1982م، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، بيروت، ط7.

قطب، سيد، 1971م، في ظلال القرآن، إحياء التراث، ط7.

ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، 1968م.

ابن النقيب، محمد بن سليمان، الفوائد المشوق إلى علوم القرآن، دار الكتب العلمية، لم تذكر الطبعة ولا تاريخها.

Manifestations of the Quran's Inimitability Concerning the Multiplicity of its Subject-Matters

*Ali A. Allan**

ABSTRACT

This study deals with the manifestations of the Quran's inimitability concerning the multiplicity of its subject-matters. Quran enables the reader to move between multiple subject-matters at a high degree of order and eloquence. It surpassed and breached the traditional verse of the Arab poets, whose eloquence is varying and lacking when moving from one subject-matter to another.

Furthermore, the Suras' subject-matters are coherent and consistent with various performance methods, which are far above disunited system of separation of Suras at the time of revelation, which is ascribed to the reasons of revelation and varying circumstances. This all serve to witness the inimitability of Quran, its divine origin and the truth of Mohammed's (may peace be upon him) message.

Keywords: inimitability, The Holy Quran, Sura'.

* Al-Balqa Applied University, Jordan. Received on 19/8/2013 and Accepted for Publication on 6/4/2014.